التحديات التي تواجه التراث الأثري العربي وطرق المحافظة عليه: المشرق العربي أنموذجا

أ.د. زيدان عبدالكافي كفافي

ملخص: تعالج هذه الدراسة واقع الحال للموروث الأثري والمخاطر التي يتعرض لها في المشرق العربي، ذلك أنه يشكل جزءاً مهماً من حضارة الأمة العربية وتاريخها ويعدّ دليلاً على ارتباطها بحضارتها وتاريخها. لذا أصبح من اللازم التعريف بهذه المخاطر وتنبيه الإنسان العربي، وتوعيته بأهمية هذا التراث، بهدف تعزيز الإنتماء له والمحافظة عليه. كما يدرس البحث دور المشرق العربي في نشأة الحضارات العالمية الأخرى، وعلاقاته معها. ويشرح البحث التحديات الداخلية والخارجية التي تهدد التراث الأثري في المشرق العربي، الذي يمثل جزءاً من التراث العالمي، ومن واجب المؤسسات الدولية حمايته، وبخاصة في الدول العربية الواقعة تحت الإحتلال مثل فلسطين والعراق.

Abstract: This article stresses the importance of the archaeological heritage in the Arab world which stems from the fact that it symbolizes Arab civilization and history. Moreover, it discusses the threats that this heritage faces both from the inside and the outside. The study also shows that the archaeological heritage represents a major part of Arab civilization and history. Due to this importance and this threat, it has become a major task for scholars and all those concerned to enlighten the public of the risks that this heritage faces and to raise public awareness of the danger, especially in occupied countries like Palestine and Iraq. Furthermore, it is has to be emphasized that preserving and maintaining Arab archaeological heritage is both an Arab and an international responsibility.

مقدمة

يعد كثير من الباحثين اللغة العربية المكوّن الأساس للثقافة العربية، وأنها هي التي تجعل من العرب أمة واحدة. وإذا كان الأمر كذلك، وسلّمنا بأن اللغة هي وعاء الفكر والثقافة لأي أمة من الأمم؛ فإن الميراث الثقافي والتاريخ المشترك هو الذي يدمج الشعوب ويوحّدها في صورة واحدة في أذهان الأمم الأخرى؛ فالتراث الأثري، إلى جانب اللغة، هو قوام هذه الأمة وهويتها، وهو، في نظرنا، يربط بين العروبة والإسلام، كما أن الإسلام هو ميراث العرب جميعًا من مسلمين ومسيحيين ويهودًا عربًا. فمعرفة اللغة هي التي تحصِّن الهويةُ ومنزلتها بين اللغات الأخرى انعكاس لمنزلة أصحابها بين الأمم (جوزيف ٢٠٠٧).

وإذا كنا نشهد الآن عولمة الاقتصاد، فإننا نخال أنفسنا وخلال السنوات القادمة في خطوة تالية هي عولمة الثقافة. إن الآثار تشكل جزءاً مهماً من الموروث الثقافي للأمم؛ والثقافة هي التي تتحكم في طبيعة العلاقة بين الأفراد والجماعات والأمم، كما أنها تتحكم في مقدار ارتباطها بحضارتها وتاريخها. ونرى أن عولمة الثقافة هي تدمير وإلغاء للهويات الثقافية الماضية والحاضرة. ولا نرى كيف لنا أن نساوي الحضارة الشرقية، التي عرف أهلها الكتابة وبنوا المدن قبل أكثر من خمسة آلالف عام (Nissen 1999: Wasilewska 2000)، بغيرها من الحضارات والتي لا يزال بعض أهلها لا يعرفون القراءة؟!

لا بد لنا في العالم العربي من تطوير الوعي الذاتي

العدد التاسع عشر - محرم ١٤٣٠هـ - يناير ٢٠٠٩م
(ص ص ٨٥-١٠٠) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

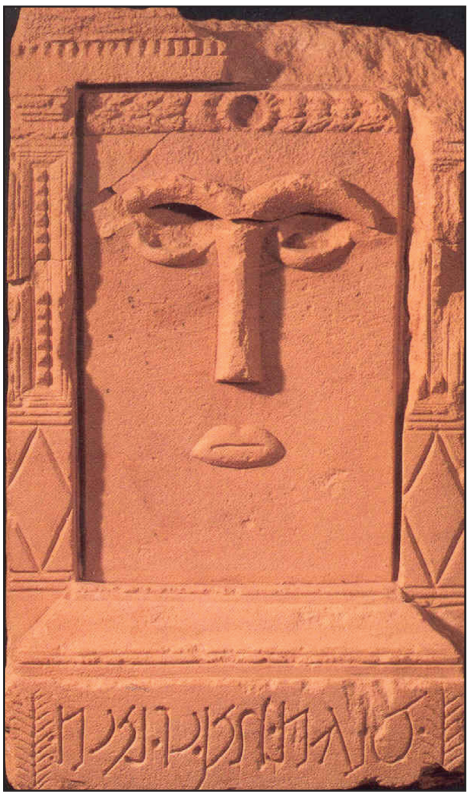

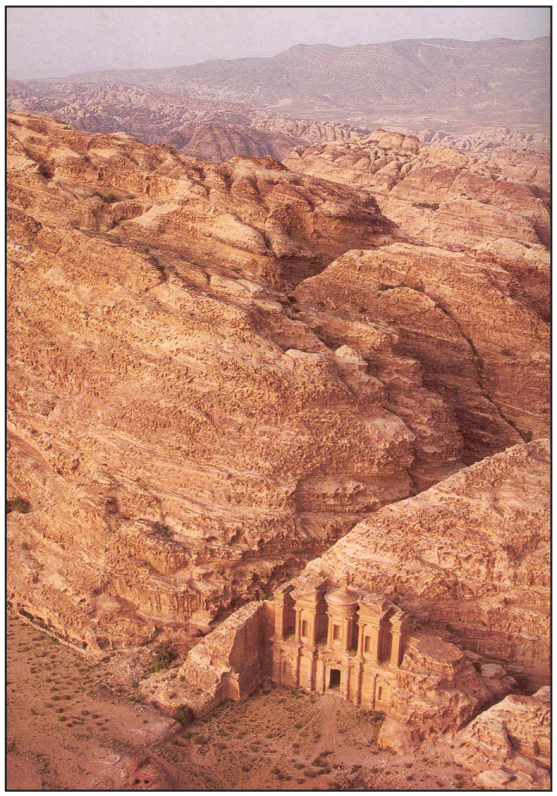

اللوحة ١: صورتان من البتراء/ الأردن: الأولى ربما تمثل المعبودة النبطية العزى، والثانية للدير، عن (Taylor 2002)

بالثقافات والحضارات المختلفة، وبيان دور الحضارة العربية في بناء ومساعدة غيرها من الحضارات. صحيح أن لكل ثقافة مسارها الحضاري وهي تعبرعن مرحلة تاريخية معينة، غير أن هناك ثقافات شاعت وانتشرت فوق منطقة جغرافية واسعة، فأصبحت مركزية؛ لكنها سيطرت على غيرها من الثقافات. وخير مثال على هذا سيطرت الثقافة الفينيقية من خلال التجارة على مناطق واسعة من العالم مع بداية الألف الأول قبل الميلاد(Moscati 1988)، وكذلك انتشار الثقافة الإسلامية فوق بقعة واسعة من قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا نتيجة للفتوحات الإسلامية؛ يقابلها انتشار الثقافة اليونانية نتيجة لحروب الإسكندر المكدوني (Finley 1963). والمقصود هنا، أن هذه الثقافات تندمج أحياناً كثيرة في حضارة واحدة، نتج عنها مخلفات أثرية ووثائق وفنون وتاريخ مشترك. وهنا يبرز سؤال: لمن ننسب مدن الديكابوليس الموجودة في بلاد الشام؟

لقد اختلطت الحضارة الغربية بالحضارة الشرقية بعد فتوحات الإسكندرالمكدوني، وأصبحت بلاد اليونان أقرب في مكوناتها الحضارية إلى الشرق منها إلى بلدان شمالي أوروبا؟!

من هنا، نرى أن الثقافة شمولية في معناها، ما يجعلها أوسع من مفهوم الحضارة والمدنية (كفافي ٢٠٠٥)، وأن أصول الحضارات تنطلق في الأساس في مفاهيمها ومعاييرها من الشرق. كذلك، وكما ذكرنا أعلاه، فإن حضارة اليونان والرومان متأثرة تأثرًا كبيرًا بحضارة بلاد الشرق الأدنى القديم. ولا بد لنا هنا من التساؤل: ما هي الهوية الثقافية العربية؟ إذ يذكر بعض العلماء أن تاريخ الأمة العربية استند في الأساس إلى اللغة، وأن الدين الإسلامي هو الذي حفظ هذه اللغة. وإذا كان الإسلام هو الذي ساعد على انتشار الثقافة العربية، فإن الآثار التي تركها لنا المسلمون تعد شواهد على هذا القول.

وتشكل الآثار، أيضاً، عاملاً مشتركاً، في كثير من الحالات، بين الأمم؛ فهي دالة على الاتصالات الحضارية والتبادل الفكري والثقافي، أكثر من دلالتها على النزاعات والحروب (Ashmore and Sharer 1988). لذا، يجب أن نبحث في هذا

النوع من التراث الثقافي عما يفيدنا في مواجهة مشاكلنا، وفي مظاهر وحدتنا الحضارية والفكرية والسياسية، لأن له صلة بفكرنا وتكويننا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وقد ننظر للتراث الآثاري من وجهة نظر أخرى لنقول: إن المهم تقديمه للناشئة من أجيالنا، خاصة إذا ما علمنا أن التراث الآثاري لا يُعنى به، في العادة، إلا فئة من المختصين، مع أنه ينبغي أن يكون أحد المكونات الرئيسية في ثقافة الأجيال القادمة. وعلى أي حال، لا بد من تأكيد أننا نرحب بالتنوع ضمن الإطار الثقافي الواحد، لأن في هذا اعتناء بالتراث الثقافي الآثاري العربي؛ فالتنوع يؤدي إلى الإبداع، وهذا يفتح الطريق للتنوع الثقافي والإنتاج الفكري. وينعكس هذا بكل وضوح على غنى البلدان العربية بالآثار والأوابد الشاهقة. وخير مثال على هذا القول، الآثار النبطية، التي تميزت بعمائرها المنحوتة في الصخر، حتى أن مدينة البتراء عدت مؤخراً ضمن عجائب الدنيا (اللوحة ١).

وبما أن الآثار تشكل جزءاً مهماً من الهوية العربية، رأينا ضرورة أن نسلط الأضواء في هذا البحث على التحديات التي تواجه التراث الأثري العربي وطرق المحافظة عليه خاصة في المشرق العربي من خلال دراسة الأمور الاتية:

١. التعريف بالتراث الأثري العربي والدراسات المتعلقة به.
٢. الأخطار الخارجية والداخلية التي تهدد التراث الآثاري العربي.
٣. توظيف الآثار في خدمة السياسة.
٤. مقترحات حول كيفية المحافظة على هذا التراث.

ونبدأ الحديث بالتعريف بالتراث الأثري العربي والدراسات المتعلقة به.

١. التراث الأثري العربي والدراسات المتعلقة به

الخريطة ١: خريطة العالم العربي.

تعني الآثار، لدى غير قليل من الناس، الأشياء القديمة والكنوز المدفونة والمدن والأوابد، التي لا يزال بعضها شامخاً؛ لكن «الآثار» في المفهوم الحديث علم، يبحث في ماضي الإنسان القديم، من خلال دراسة مخلفاته الأثرية بطرق علمية صحيحة. وتشمل الدراسات الأثرية، أيضاً، طرق المعيشة ووسائل الإنتاج والمعتقدات والأفكار والعمارة والتجارة وطرق الاتصال والتواصل بين المجموعات البشرية (كفافي ٢٠٠٤).

وإذا كان علماء الأحافير وجدوا أقدم البقايا الإنسانية التي عثر عليها، حتى الآن، في قارة أفريقيا، فإن العالم العربي شهد أهم التحولات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية. فعلى صعيد الاقتصاد، فإن منطقة حفرة الانهدام الآسيوية -الإفريقية، خاصة في جزئها الممتد من شمالي سوريا وحتى جنوبي الأردن وفلسطين، شهدت بواكير الاستقرار الدائم والزراعة في العالم. وإذا كانت كلمة «الحضارة» مشتقة، من الحضر، أي الاستقرار، فإن أصل الحضارات العالمية هو هذه المنطقة. وأما أقدم المدن الأولى في العالم، فأساسها في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر، وهذه المكتشفات الأثرية في مواقع أور (أبو شهرين) في العراق وحبوبة كبيرة في سوريا، خير دليل على ذلك (الخريطة ١).

كما أنه وفي الوقت الذي لا تزال فيه بعض المجتمعات العالمية، مثل غينيا الاستوائية، لا تعرف القراءة والكتابة، فإن الناس في بلاد الرافدين ومصر عرفوها قبل أكثر من خمسة آلاف عام (Edzard 1995). إن التحول الاقتصادي، خلال الألف التاسع قبل الميلاد رافقه وتبعه تحولات فكرية واجتماعية، بل وحتى تقنية. وانعكس هذا كثيراً في عدد كبير من قرى المزارعين الذين انتشروا فوق منطقة واسعة، خاصة في منطقة المشرق العربي. ولا نستطيع في هذه العجالة إلاّ القول إن أهم هذه القرى جاء من حوض الفرات الأوسط وسواحل البحر المتوسط وجنوبي بلاد الشام، ولنا في قرية عين غزال دليل على ذلك (Rollefson et al 1992) (اللوحة ٣).

ووصل الناس مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد إلى مرحلة فكرية وحضارية، متقدمة، فتحولت القرى إلى مدن، وتطور نظام سياسي في بعض مناطق العالم العربي، فظهرت الدولة. واحتضن حوضا الفرات ودجلة والنيل أولى الدول العالمية (كفافي ٢٠٠٥؛ Forest 2005). ومَنْ منّا لا يعرف الأهرامات في مصر والزقورات في وادي الرافدين. ورافق وجود المدينة ظهور المعبد، وعرف الناس الديانة، فبنوا لآلهتهم المعابد. ولم يقم كهنة المعبد على خدمة الآلهة فقط، بل كانوا هم الساسة وأرباب العمل في بادئ الأمر حتى ظهور السلطة الزمنية. وجاء الأكاديون الساميون ليؤسسوا أول

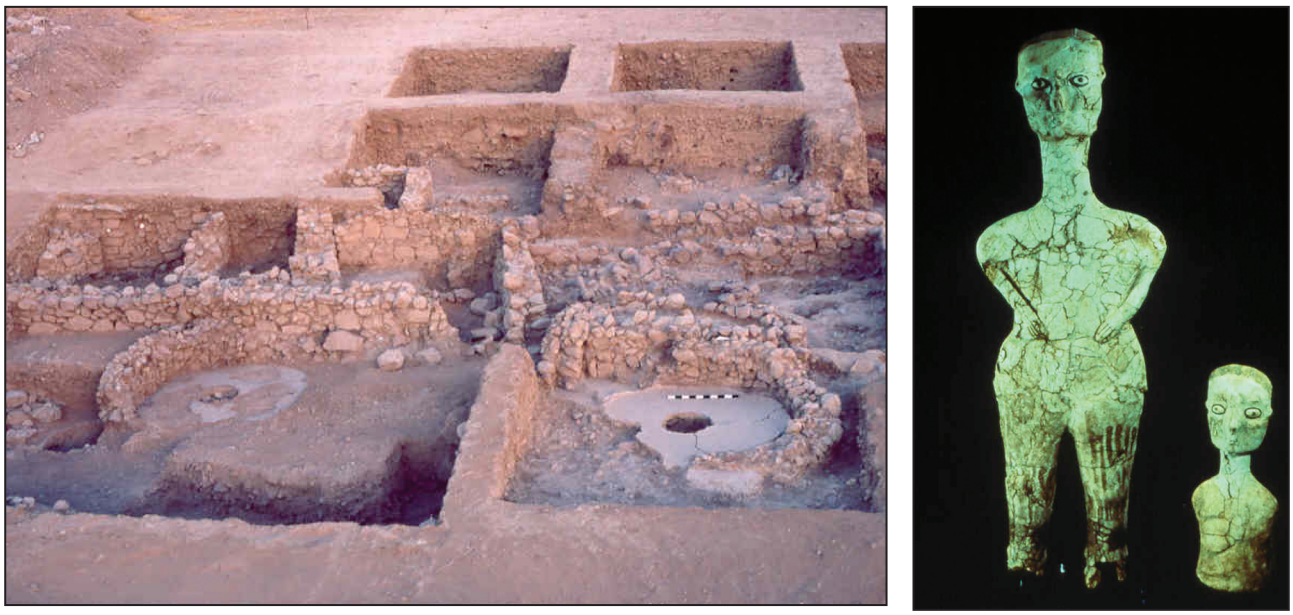

اللوحة ٣: مباني وتماثيل بشرية من موقع عين غزال/ الأردن عمرها نحو تسعة آلاف عام

اللوحة ٤: مسلة حمورابي

إمبراطورية عالمية، ويسيطروا على منطقة واسعة من غربي البحر المتوسط. ومَنْ منّا لم يسمع بسرجون الأكادي وفتوحاته. كذلك، فإن بلاد العرب شهدت أولى التشريعات العالمية، وهنا أذكِّر بقانون حمورابي وتشريعاته، وكذلك بعاصمته بابل (Frayne 1990) (اللوحة ٤).

ولم يكتف الفراعنة ببناء الأهرامات، بل خرجوا إلى المناطق المجاورة وتركوا لنا فيها آثاراً لا تزال ظاهرة للعيان. بل إن المصريين القدماء هم الذين أوقفوا زحف الحثيين سكان الأناضول، على بلاد الشام. ولم يترك المصريون آثارهم فوق منطقة وادي النيل فقط، بل نراها الآن فوق كل المناطق العربية المجاورة (Gardiner 1974) (اللوحة ٥).

ومن هنا، نرى أن بلاد العرب، خاصة من وادي النيل إلى حوض الفرات، شهدت تكاملاً حضارياً حتى قبل أكثر من خمسة آلاف عام. لكن هذا لم يمنعهم من الاتصال بالأمم الأخرى؛ فنجد أنهم استوردوا خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد البضائع، مثل الأواني الفخارية، من قبرص وبلاد اليونان. وكما ذكر العالم جوردون تشايلد، فإنه لولا وجود الحضارة الشرقية، لما كانت هناك حضارة غربية. فالحضارات تكاملت وتفاعلت أكثر من أنها تقاتلت وتحاربت.

وجاء المنتج الحضاري الذي انعكس في الفكر واضحاً في المخلفات الأثرية. ألم تعرف بلاد العرب في العصور القديمة تعدد الآلهة، كما هو الحال في بلاد اليونان؟

ولمّا كانت بلاد العرب مهبط الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، فإن الشواهد الأثرية من هذه الفترات هي الإثبات على ذلك، وخير مثال مدينة القدس، حيث يتعانق المسجد الأقصى وكنيسة القيامة (Armstrong 1997) (اللوحة ٦). من هنا نرى أن التعريف بأهمية هذه الأثار الدينية والمحافظة عليها هي مسؤولية كل الناس، وليس بعضهم؛ لكنها تظل آثارًا عربية، هم الذين بنوا أجراسها وقببها ومآذنها.

هذا تعريف سريع وغير شامل ببعض آثار لمناطق في العالم العربي؛ لكن ما موقع الباحثين العرب في دراسة هذه الآثار بالقياس إلى الدراسات التي يقوم عليها علماء الغرب؟ للإجابة على هذا السؤال لا بد من التذكير بأن أفضل وصف لقبة الصخرة وبعض المعالم المعمارية الإسلامية، قدّمها الإنجليزي كريزويل في كتاب صدر له عام ١٩٣٢ (Creswell 1932). وأن المتاحف العالمية في لندن وباريس وبرلين تحفظ أفضل القطع الآثارية من العالم العربي (Jakob-Rost et al 1992; Caubet et al 1993). فماذا عملت المتاحف في العالم العربي للمحافظة على هذا التراث؟ ومن المفرح

اللوحة ٥: مشهد يمثل الفرعون رمسيس الثاني في حربه ضد الحثيين

اللوحة ٦: منظر عام لمدينة القدس الشريف

أن كثيراً من الدول العربية أدركت أهمية التراث الأثري خلال العقود الأخيرة، فأقامت له المتاحف التي زودتها باختصاصين ومختبرات، للعمل على صيانة وديمومة القطع الأثرية المكتشفة.

وما زلنا نلعن الغرب...!! السبب معروف وهو وقوع البلاد العربية تحت حكم الاستعمار الغربي أولا، ومن ثم محاولة الهيمنة الثقافية الغربية على ثقافتنا العربية. وبطبيعة الحال، فإن هذا القول يقودنا لتقديم لمحة موجزة عن الدراسات المتعلقة بالآثار في العالم العربي.

اهتم الغربيون بدراسة تاريخ البلاد العربية وآثارها لأهميتها الدينية، ولغناها بالمصادر الطبيعية ولموقعها الإستراتيجي؛ لكن هذا لم يمنع من وجود فئة من العلماء الغربيين، الذين بحثوا ويبحثون في آثارنا العربية والإسلامية طلباً للمعرفة. ففي الفترة التي سبقت ميلاد المسيح، طاف ببلاد العرب رحالة غربيون، من أمثال هيردوتس وديودور الصقلي، تبعهم في الفترة التي سبقت الإسلام آخرون، من أمثال المؤرخ بلني وبطليموس ويوسيبيوس وغيرهم. وقدم هؤلاء في كتاباتهم وصفاً لبعض المناطق والمظاهر الأثرية التي زاروها خلال رحلاتهم. كذلك، وفي الفترة التي سبقت عصر النهضة في أوروبا أصبحت معلومات الناس هناك حول البلاد المقدسة خاصة تستقى من الكتب السماوية (Albright 1971).

وخلال القرون الخامس عشر وحتى بداية العشرين، توالى الرحالة الأوروبيون على زيارة البلدان العربية، ونشروا كثيراً من أبحاثهم حول مشاهداتهم للبلاد التي زاروها وأهلها (أويتنج ١٩٩٩). وعلى رأس هؤلاء نذكر الدنماركي كارستن نيبور (بيرين: د. ت.). كذلك لا ننس أن نابليون اصطحب معه خلال حملته على مصر عام ١٧٩٨م عدداً من العلماء الفرنسيين، الذين وصفوا وسجلوا جميع ما شاهدوه. كما أنشأ الفرنسيون «المعهد المصري الفرنسي للآثار»، ونقلوا مجموعة كبيرة من الآثار المصرية إلى فرنسا. علماً أن العالم الفرنسي جان- فرانسوا شامبليون هو الذي استطاع فك رموز الكتابة الهيروغلوفية المكتوبة على حجر رشيد (اللوحة ٧). ويعود الفضل للفرنسي أوغست مارييت في إنشاء المتحف المصري. وما حصل في مصر خلال هذه الفترة حصل في بلاد الرافدين، حيث قام عدد من المهتمين من الإنجليز والفرنسيين والألمان بإجراء تنقيبات اعتباطية في عدد من المواقع الأثرية المعروفة، ونقلوا عدداً من آثارها المهمة والبارزة إلى بلدانهم.

على أي حال، اقتصرت أعمال الغربيين في معظم الأحوال، وخلال الفترة التي سبقت منتصف القرن التاسع عشر، على عدد من الرحلات الاستكشافية وكتابة التقارير حول الأماكن التي تمت زيارتها. وبطبيعة الحال، ازداد الاهتمام بالتعرف على آثار بلاد الشام ومصر والعراق

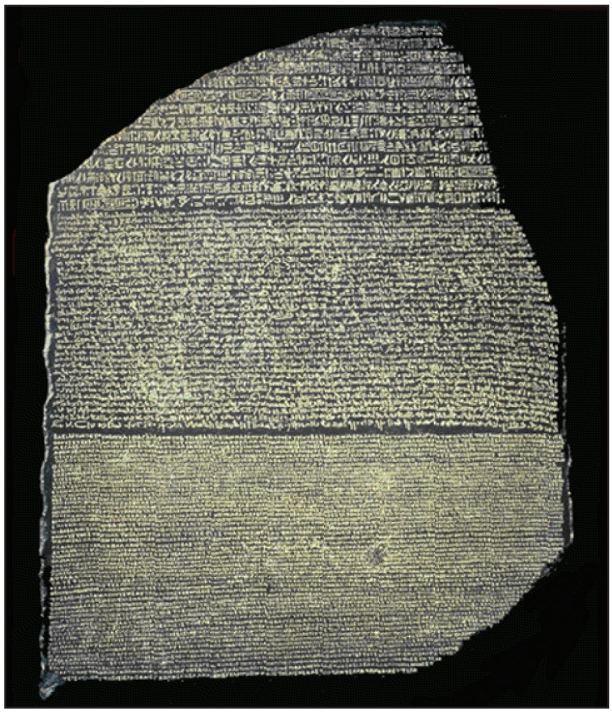

اللوحة ٧: حجر رشيد

بعد هذه الاستكشافات. وربط الناس بين بعض المكتشفات والمواقع الأثرية والقصص التوراتية. ولم يكتف الناس في الغرب بهذه الأعمال الفردية في معظمها وغير المنظمة؛ فقرروا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسيس المدارس والجمعيات الأثرية لتقوم على تنظيم البحث الأثري، خاصة في وادي الرافدين وبلاد الشام ومصر. ولم يُخف مؤسسو هذه المؤسسات أن الهدف من تأسيسها هو إثبات صحة ما جاء في التوراة (كفافي ٢٠٠٤).

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تغيرت الأوضاع السياسية، خاصة في المشرق العربي. وسيطر الإنجليز والفرنسيون على مقاليد الأمور في البلاد، فانفتحت الأبواب أمام الباحثين الأوروبيين للبحث والتنقيب في آثار البلاد العربية. ولا يخفى على أحد أن معظم النشاطات الأثرية التي جرت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، تركز أكثرها في فلسطين. كما دربت البعثات الغربية عدداً من اليهود على كيفية التنقيب عن الآثار، وعملت معاولهم في عدد من المواقع. ونتج عن هذه الحفريات دراسات تخدم هدفاً واحداً، هو إعطاء هوية ثقافية لليهود من خلال الدراسات الأثرية في فلسطين (إبراهيم ١٩٩٠).

نالت جميع الدول العربية استقلالها عند انتصاف القرن العشرين أو بعده بقليل، لكن معظم مواقعها الأثرية بقيت تحت معاول الباحثين الغربيين، حتى أسس كثير من البلدان العربية الكوادر المحلية ووضعوا البرامج الدراسية في حقل الآثار. وكانت مصر هي الرائدة. لكن مع ذلك ظل الباحثون العرب أسرى المناهج البحثية والتفسيرات الأثرية الغربية، ولم يطوروا، للأسف، لأنفسهم منهجاً بحثياً علمياً منفصلاً (الأنصاري وكفافي ١٩٩٠). ونفرح الآن عندما نقرأ أو نرى مجلة عربية أثرية تعنى بنشر ما يكتب حول آثارنا بأي لغة كانت، وعلى رأسها العربية. ولو قارنا عدد المنشورات الأثرية الصادرة باللغة العربية بغيرها مما نشر باللغات الأجنبية، ومنها العبرية، لخرجنا بنتيجة مفادها أننا لا نزال نحبو. أليست هذه مشكلة بحاجة إلى حل ودعم؟ ونوصي في هذا المقام بضرورة تشجيع النشر العلمي حول التراث الآثاري العربي؛ لأن في هذا الأمر تعميماً للمعرفة به. كما أنه لا بد من الإشارة إلى ضرورة تأليف كتب للأطفال توضح لهم وتعرفهم بلغة بسيطة أهمية الآثار العربية؛ لأن في هذا تعزيزاً للانتماء.

٢. التحديات التي تواجه التراث الآثاري العربي

بعد الحصول على استقلالها سيطرت على دول العالم العربي مشكلات شتى، تمثلت في تأمين سيادتها على مواردها الطبيعية المحلية. كما تشغل اليوم قطاعًا واسعًا من العالم العربي مسألة تأكيد الذاتية الثقافية، في مواجهة عولمة الغرب.

وبين مسألة التحرر من نير الاستعمار وتأكيد الهوية الثقافية العربية، برزت مسألة القدرة على التجديد والابتكار في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية. كما واجهت، وتواجه الأمة العربية في الوقت الحالي، تحديات، تتمثل في محاولة السيطرة على التراث الثقافي العربي، ومنها الآثار، من خلال اعتماد تفسيرات تخدم أهدافًا معينة عند استنطاق المادة الأثرية.

إن المادة الأثرية، إضافة للكتابات والوثائق والمحفوظات القديمة، تشكل الإطار التاريخي والهوية الثقافية لأي أمة من الأمم. وإن جوهر تاريخ الأمة العربية هو تلك الأوابد الشامخة، إضافة إلى ما تركه الأجداد من نصوص ووثائق وكتابات تعكس واقع الفكر العربي عبر العصور، حالهم في هذا حال غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى؛ لكن هذه الأمة، وخلال العقود الأخيرة أخذت تواجه مشكلة استيعاب ما ينتج عن العالم الغربي من إبداعات واختراعات، ما أدخل الأجيال الحالية والقادمة في طريق يبتعد عن الاهتمام بماضي الأمة العربية، الذي ينعكس في البقايا والمخلفات الأثرية.

ونرى أن التحديات ليست بجديدة على العالم العربي، وإذا كان بعضها طارئاً، مثل حدوث النزاعات والحروب والاحتلال، فهناك تحديات أخرى داخلية. إن هذه التحديات يجب أن تكون عاملاً من عوامل تقوية الهوية الثقافية العربية، وسبباً مباشراً من أسباب تماسكها؛ فمواجهة التحديات الخارجية تبدأ في الأساس من الداخل، وذلك من طريق تعزيز مقومات الهوية الثقافية من لغة وتراث ثقافي،

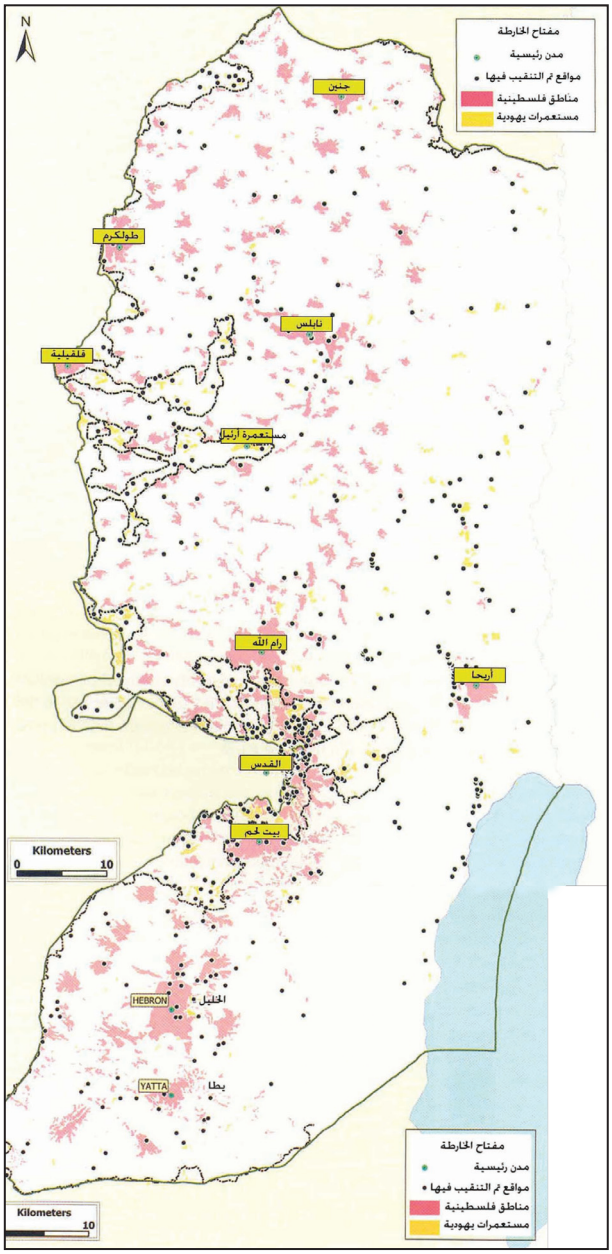

الخريطة ٢: مواقع الحفريات الأثرية التي نفذتها إسرائيل ومؤسسات عالمية أخرى في الضفة الغربية المحتلة بما فيها القدس بعد احتلالها في حرب عام ١٩٦٧م (Greenberg and Keinan 2007).

بوصف أن المخلفات الأثرية تشكل جزءًا مهماً منه. ويكون هذا التعزيز بالارتفاع بالقاعدة العلمية إلى مرحلة تطبيق التكنولوجيا، وإدخال تدريس مادة الآثار من قديمها وحتى نهاية الفترات الإسلامية ضمن المناهج المدرسية. وحتى تكون الأمور في إطارها الصحيح، لا بد من وضع الفلسفة والأسس لكيفية إدخال مثل هذا النوع من الموروث الحضاري في المنهاج المدرسي، وكيفية توصيل المعلومة الصحيحة وغير المنحازة لذهن الطالب. وأود هنا التأكيد على ضرورة الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة في مثل هذا النوع من الدراسات؛ لكن بشرط ألا تضيع الهوية الثقافية العربية من خلال وضع تفسيرات مغلوطة ومتحيزة لتخدم بعض العقائد والأفكار. أي تقديم المعلومة المجردة والصحيحة حول الآثار في البلدان العربية، بصرف النظر عن العرق أو الجنسية أو الديانة (Pollock and Bernbeck 2005). ويجب أن تكون للمخلفات الأثرية أهمية خاصة لأنها جزء كبير من التراث، والتراث هو في صميم الهوية الثقافية ومن مقوماتها الأساسية.

ذكرنا فيما سبق أن هناك تحديات خارجية وداخلية تهدد التراث الآثاري العربي، ليس فقط بالتدمير وإنما كذلك بالتحوير وتقديم الدراسات والتفسيرات غير الدقيقة حوله. ومن الملاحظ أن التطورات الاقتصادية والاجتماعية في الوقت الحاضر تؤثر بشكل كبير على المحافظة على التراث الآثاري. ويرصد الباحثون الآثاريون عدداً كبيراً من المواقع الأثرية تُدَمر، أو هي معرضة للخراب والدمار، إما بفعل الناس أو العوامل الطبيعية. وللأسف، فإن كثيراً من هذه المواقع دُمّرت دون تسجيلها أو حتى إجراء أي تنقيبات أثرية إنقاذية فيها (Kafafi 2002) (الخريطة ٢). وهذا يؤدي، من ثم، إلى ضياع معلومات مهمة حول السجل التاريخي والحضاري العربي. ولا ننكر في هذا المقام أن كثيراً من الآثاريين العرب نبهوا في أكثر من مناسبة لهذا الموضوع، بل إن بعض الدوائر والمؤسسات الأثرية العربية أُنشئت فيها وحدات للتوعية الأثرية، كما أسست جمعيات غير حكومية مثل «جمعيات أصدقاء الآثار»، لكننا وللأسف لم نلحظ أي مردود فعال نتيجة للنشاطات التي تقوم بها هذه المؤسسات، وبقي الحال على ما هو عليه !! بل وفي بعض الأحيان ازداد الأمر سوءاً. وحتى نعطي الأمر حقه، نقدم أدناه ملخصاً للتحديات والأخطار التي تواجه التراث الأثري العربي.

التحديات الخارجية

ذكرنا فيما سبق أن دول العالم العربي خضعت بعد انتهاء الحكم العثماني للاستعمار الأجنبي مددًا متفاوتة. وعلى سبيل المثال: خلال مدة الانتداب البريطاني على الأردن

وفلسطين تم تأسيس دوائر للآثار في كلا البلدين، لكن هذا وضع المخزون الآثاري العربي في هذين البلدين تحت رحمة الإنجليز (إبراهيم ١٩٩٠). وهذا الأمر ينسحب على بلدان عربية أخرى. من هنا نرى أن التحديات الخارجية للتراث الآثاري العربية تمثلت في عدد من المحددات والعوامل هي:

١. الاحتلال العسكري

من الواضح أن تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م على جزء كبير من أرض فلسطين التاريخية، أنتج حالة من الصراع الدائم بين العرب وإسرائيل. ونتج عن هذا الصراع مجموعة من الحروب منها في أعوام ١٩٥٦و ١٩٦٧ و١٩٧٣و ١٩٨٢م. لكن أكثر هذه الحروب ضررًا كانت حرب عام ١٩٦٧م حين خسرنا بقية فلسطين والجولان وسيناء. وإذا كانت سيناء قد عادت لأصحابها، إلا أن الإسرائيليين أجروا العديد من المسوحات والحفريات الأثرية فيها قبل

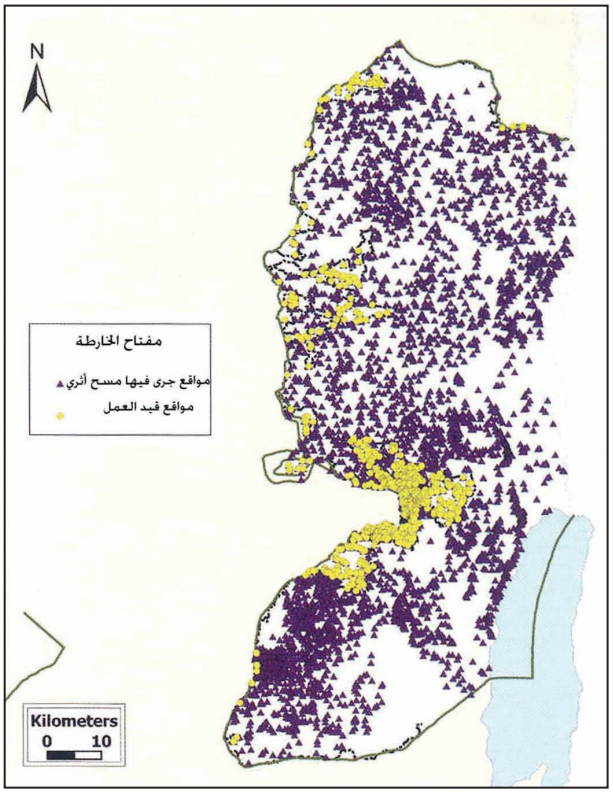

الخريطة ٣: المواقع الأثرية في الضفة الغربية المحتلة بما فيها القدس وقد تم مسحها من قبل الموسسات الإسرائيلية بعد احتلالها في حرب عام ١٩٦٧م (Greenberg and Keinan 2007).

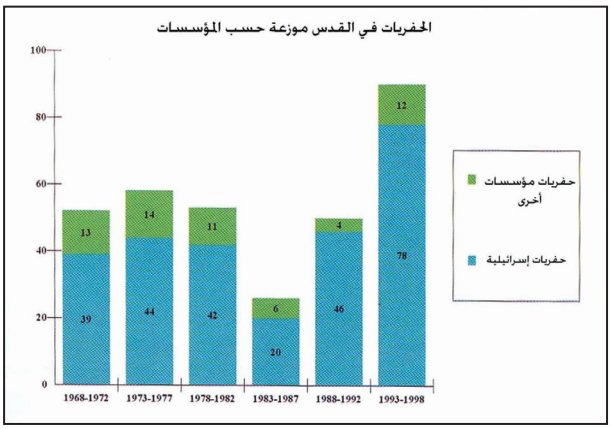

الشكل ١: رسم بياني يبين عدد الحفريات الأثرية الإسرائيلية وغيرها، التي أجريت في القدس بعد عام ١٩٦٧م (Greenberg and Keinan 2007).

إرجاعها إلى أصحابها الشرعيين. كما أن ما يعرف بإسم «الضفة الغربية» من فلسطين خضع، ولا يزال يخضع، للدراسات الميدانية الأثرية الأسرائيلية (Greenberg and Keinan 2007).

ونتج عن هذه الأعمال استيلاء إسرائيل على قدر كبيرة من الآثار؛ بل والأخطر من هذا وذاك، هو تغيير أسماء كثير من المواقع وإعطاؤها أسماء وردت في أسفار التوراة. وهذا بطبيعة الحال يساعد في إعطاء الهوية الثقافية والتاريخية للإسرائيليين في فلسطين.

ولا أود هنا أن أفاجأكم بالقول إن جميع الحفريات التي جرت في مدينة القدس قام بها باحثون إسرائيليون وأجانب، بل إن الإسرائيليين هم الذين نبشوا مناطق كثيرة في المدينة، خاصة سلوان والمنطقة المطلة عليها(الخريطة ٣) (الشكل ١) (Kafafi and Schick 2007) .

كما أن متحف الآثار الفلسطيني، والذي ضم مخطوطات البحر الميت، أصبح ملكاً لهم. ولشدة اهتمامهم بهذه المخطوطات ولأهميتها الكبيرة، أنشأوا لها متحفاً خاصاً.

من هنا نستطيع القول إنه نتيجة للاحتلال الإسرائيلي على فلسطين، تعرضت هذه الآثار لمجموعة من التحديات هي:

١. أصبح في استطاعة الإسرائيليين التنقيب في أي موقع ومكان يريدون.

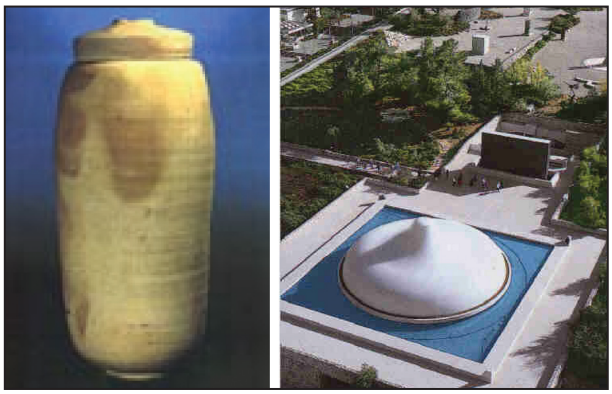

اللوحة ٨: متحف مخطوطات البحر الميت في القدس (يمين) ، وجرة فخارية عثر بداخلها على بعض اللفائف (يسار).

٢. دراسة الآثار المكتشفة ووضع تفسيرات لها، بما يتناسب ومعتقداتهم ومخططاتهم.

٣. نشر هذه الآثار ونسبتها لهم، خاصة آثار العصر الحديدي.

٤. تأسيس المتاحف الأثرية الإسرائيلية والاستفادة منها، في تعميم المعرفة بالعبرانيين والإسرائيليين (اللوحة ٨).

٥. تعزيز الهوية التاريخية اليهودية والانتماء لإسرائيل، من خلال دراسة الآثار وتدريسها للأجيال الشابة.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أننا لا نرى ضيرًا في عد آثار مملكة إسرائيل القديمة، علماً أنها لم تعمر كثيراً، آثاراً عربية؛ خاصة إذا ما علمنا أن اليهود الأوائل الذين آمنوا برسالة موسى هم من أبناء جلدته، الذين كانوا جزءًا من المجتمع العربي الذي سكن هذه المنطقة. إلآ أن الأمر يختلف في الوقت الحاضر، حيث تضم دولة إسرائيل الحالية خليطاً من الأعراق والأجناس لا يجمعهم إلا دينهم.

وحلت مصيبة أخرى على العالم العربي باحتلال العراق، مهد الحضارة الإنسانية. والأمر هنا يختلف عن فلسطين، لأنه احتلال مؤقت وسوف يزول. لكن ماذا نتج عن هذا الاحتلال؟

١. تعرض كثير من المواقع الأثرية للتدمير، جراء تعرضها للقصف أو حفر خنادق فيها.

٢. تعرض المتحف العراقي للتدمير وفقدان بعض القطع الأثرية المهمة فيه (اللوحتان ٩ و ١٠).

٣. استخدام بعض المواقع، مثل بابل، معسكرات للجيوش.

لقد فتح احتلال العراق للعامة من الناس الأبواب لإجراء حفرياتهم الخاصة (الناشف ٢٠٠٤). وفي رأينا، أن ما دُمر في المتحف العراقي هو أخف ضرراً من تدمير أي موقع أثري فيه؛ لأن المواقع الأثرية هي في الأساس مخازن للآثار، وهي مداد لكتابة تاريخ الأمم.

ولا ننسى في هذا المقام تعرض الجنوب اللبناني، لعدد من السنوات، للاحتلال الإسرائيلي. فقد أجرى الإسرائيليون خلال هذه المدة بعض النشاطات الأثرية الميدانية غير القانونية؛ لكن الأمر لم يستفحل كما هو الحال في فلسطين والعراق. ومن هنا لا بد من مخاطبة المؤسسات الدولية المعنية مثل اليونيسكو، من أجل تحديد ملكية هذه الآثار

اللوحتان ٩ و ١٠: آثار التدمير داخل المتحف العراقي بعد دخول قوات الاحتلال

وضرورة حمايتها والمحافظة عليها وعدم السماح بالمتاجرة بها.

٢. مناهج البحث وتفسير الآثار المكتشفة

يمكن القول إن إجراء حفريات أثرية لا يشكل خطراً على الأمة وتاريخها بقدر ما يأتيها الخطر من كيفية دراسة الآثار المكتشفة وتفسيرها. ونعني بمناهج البحث هنا الطريقة التي يتبعها المنقبون عند إجرائهم للحفريات الأثرية. فمثلاً، نلاحظ أن كثيراً من الباحثين الآثاريين متخصصين في دراسة فترة معينة، لهذا، فإنهم قد لا يهتمون عمومًا بالفترات الأخرى. إذ، نجد منقبين في مواقع تعود للفترات البرونزية والحديدية في فلسطين والأردن لا يهتمون بإبراز الفترات الأخرى قدر اهتمامهم بمكتشفات هذه العصور، بل إن بعضاً منهم يتغاضى عنها بشكل كبير، فلا يقدم صورة صحيحة وصادقة عن الفترات الأخرى، التي تشكل حلقة في تاريخ الأمة العربية (إبراهيم ١٩٩٠).

أما قضية تفسير الآثار بشكل يتواءم مع معتقداتهم وأهدافهم، فهذا أمر ينطبق بشكل خاص على الموروث الآثاري العربي المكتشف في البلدان التي لها علاقة بالأحداث الواردة في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) (Knauf 1994; Laughlin 2000; Clark and Matthews 2003). فالآثاريون التوراتيون يعدون الآثار المكتشفة في مدينة نابلس وما جاورها آثار مملكة إسرائيل، بل ويسمون المنطقة باسم السامرة. والمتتبع لما ينشر من أبحاث وتقارير تتضمن المصطلحات والجداول الزمنية التي يستخدمها كاتبو هذه التقارير، يلاحظ ما يلي: يحاول كثير من الآثاريين، خاصة العاملون في المشرق العربي، استخدام الكربون الإشعاعي عند وضع وترتيب هذه الجداول الزمنية، والابتعاد ما أمكن عن الاعتماد على الأحداث التاريخية، كما كان متبعاً. والهدف، في تقديري من هذا، هو فصل الآثار عن التاريخ؛ لأن التاريخ هو تاريخ الأمة العربية. بصرف النظر عن المكان أو البلد الذي جرت فيه الحوادث التاريخية التي حولت مجرى التاريخ في المنطقة.

كذلك، وحتى يتخلص الباحثون الأمريكيون من مشكلة العمق التاريخي لتاريخهم، ربطوا بين الدراسات الأثرية والمجتمعات التي تعيش في الحاضر حياة غير متحضرة، وأطلقوا على هذا العلم إسم «الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology». وهم بهذا لا يدرسون الآثار فقط، بل الشعوب أيضاً؛ فأصبح لدينا ما يعرف باسم «الدراسات الأثرية – الأنثروبولوجية Ethno- Archaeology» .

إن معرفة المناهج والتفسيرات التي تستخدم في دراسة الآثار العربية ضرورية جدًا، وهي في رأينا أهم من اكتشاف هذه الآثار؛ لأن المادة الأثرية هي الهوية التاريخية، ولا يجوز أن تعطى هذه الهوية لغير أصحابها. إن تدريس هذه المناهج الأثرية في الجامعات العربية من أجل التعريف بها والتعرف على أصحابها ضرورة مهمة وملحة. ولا ضير في أن نأخذ منها ما يناسبنا ونبتعد عما يضرنا ولا يفيدنا.

٣. المتاحف العالمية والآثار العربية

أحزن وأفرح في الوقت نفسه الذي أزور فيه متحفاً عالمياً مثل «المتحف البريطاني/ لندن» و«اللوفر/ باريس» و«البرغامون/ برلين» أحزن؛ لأنني أرى آثاراً عربية مهمة في تاريخها، وجميلة في شكلها، معروضة في غير مكانها الأصلي. وأفرح عندما أرى الحالة الجيدة التي عليها هذه الآثار، مقارنة بما عليه الحال في متاحفنا العربية، وذلك للاهتمام الكبير الذي تلقاه من القائمين على هذه المتاحف العالمية؛ فإضافة للحفاظ على ماهيتها وكينونتها وبيان أهميتها، فإنها عند عرضها في هذه المتاحف العالمية تعكس صورة جيدة بل وممتازة عن الحضارات التي قامت في العالم العربي خلال العصور القديمة. لذا، فأنا لست من المطالبين بعودة هذه الآثار لبلدانها، بل مع الذين يصرون على بقائها في هذه المتاحف العالمية مع ضرورة تقديم هذه المتاحف قوائم بهذه الآثار للبلدان العربية التي تنسب لها.

ومن المؤسف حقاً أن تقوم بعض المؤسسات والمتاحف العالمية بشراء بعض القطع الأثرية المهمة، التي يعثر عليها لصوص وجامعو الآثار. بداية فهذا عمل مخالف للقوانين والأعراف الدولية، إن حصل. على أية حال، إن شراء هذه القطع يشجع سارقي الآثار على إجراء المزيد من الحفريات غير الشرعية، ما يؤدي إلى فقدان معلومات أثرية مهمة ترتبط بالآثار المسروقة. فالأثر تكون أهميته العلمية أكبر

عندما يستطيع الباحثون معرفة السياق الأثري الذي وجد فيه، وكذلك القطع الأثرية الأخرى المصاحبة له. وبالفعل فإن من يشتري قطعة أثرية، سواء كان مؤسسة أو شخصاً، فإنه يسهم في تخريب التراث العالمي وتدميره، ويعد شريكًا في سرقة الآثار.

وفي ختام عرضنا للتحديات الخارجية التي تواجه تراثنا الآثاري، نجد أن البعثات الأجنبية هي الرائدة والناشطة في البحث عن آثارنا. ونحن لا نرفض هذا الأمر إذا كانت الأهداف نبيلة، وإذا كان الباحث يهدف العلم أكثر من السياسة. إن تعميم المعرفة بتراثنا الآثاري العربي مهم جداً، لكن لا بد من مشاركة الباحثين العرب مع البعثات الأجنبية، ليس فقط شهاد زور، لكن على نفس السوية من المشاركة، والإسهام في دراسة هذا التراث وتفسيره.

التحديات الداخلية

الآثار الباقية هي ذاكرة الشعوب ومرآة لحضارات اندثرت. ولم يك بني البشر هم أداة تخريب ما ترك الأجداد، إذ قد تكون العوامل الطبيعية في بعض الأحيان أكثر قسوة من الناس. ونحن هنا لا نريد أن نبحث في كيفية تأثير العوامل الطبيعية على المخلفات البشرية، بقدر ما نود التذكير بها. ومن نافل القول إن بعضاً من الناس لا زالوا يذكرون مواقع وقطع أثرية هلكت واندثرت للأبد، إما نتيجة لإهمال بشري أو لعامل طبيعي. وإن من يريد كتابة القصة الحضارية لبلد ما، فلا بد لمعلوماته أن ترتكز على المادة الأثرية، إضافةً للألواح المكتوبة والحجارة المنقوشة؛ فالمادة الأثرية تعكس السلوكات والأفكار والمعتقدات الإنسانية، التي هي مكون ثقافي مهم.

وحتى ندخل في صلب موضوعنا لا بد من طرح أسئلة ومحاولة الإجابة عليها حتى نعرف ما هي التحديات الداخلية، التي تواجه الموروث الآثاري العربي؟ وأول هذه الأسئلة يتعلق بمسألة الوعي. فهل يعي الإنسان العربي أهمية هذا التراث؟ وأن المحافظة عليه هي محافظة على الشخصية والهوية العربية؟ وهل يعرف جميع الناس أن الحضارات الإنسانية متداخلة أكثر من كونها متصارعة؟

في اعتقادي أن الإجابة على السؤال الأول واضحة، وهي أن الإنسان العربي العادي يفكر في تأمين لقمة عيشه قبل أي شيء. وأوضحنا سابقاً أن عدداً من المؤسسات العربية بدأت الخطى الأولى بإنشاء وحدات للتوعية الأثرية فيها. وكما ذكرنا آنفاً، فإن الوعي بأهمية الآثار لا يأتي إلا على مقاعد الدراسة، ونكرر المطالبة بتدريس الآثار في المدارس، وكتابة كتب للأطفال تتناول هذا التراث بالشرح والقيام برحلات علمية للمواقع الأثرية.

وتُعد الحفريات غير المشروعة التي يقوم بها الباحثون عن الكنوز أشد خطورة من غيرها من العوامل؛ لكنها ناتجة عن عدم وعي المواطن بأهمية تراثه (كفافي ٢٠٠٤). ويهدف لصوص الآثار من حفرياتهم الحصول على قطع أثرية غالية الثمن يبيعونها للأشخاص القادرين على شرائها، وربما يكون المشتري بعض المتاحف الدولية، من خلال أشخاص تخصصوا في هذه المهنة. إن مثل هذا الأمر يضعف السجل الأثري والحضاري لأي بلد تنهب آثاره. فسارق الآثار أو الباحث عن الكنوز يدمر كل شيء في أي موقع أثري، من أجل الحصول على قطعة اثرية باهظة الثمن. فهو لا يهتم بقيمتها التاريخية قدر اهتمامه بالمبلغ الذي سيحصل عليه.

والسؤال الآن: لماذا يقوم هؤلاء الأشخاص بسرقة وتدمير الآثار؟ ومن الذي يشجعهم على هذا؟

للأسف، فإن الفاقة والحاجة هي التي تضطر هؤلاء الأشخاص لنبش الآثار القديمة وتدميرها، وما يشجعهم على هذا الأمر هو شراء بعض الأشخاص والمؤسسات والمتاحف العالمية هذه القطع بمبالغ مرتفعة. كما أن بعض الناس يعد القطع الأثرية تحفاً فنية رائعة تستحق الاقتناء والعرض في البيوت. وبرأينا أن معالجة مثل هذا الأمر لا تتم إلا بسن القوانين والتشريعات الصارمة أولاً، وكذلك محاولة إيجاد فرص عمل لمن لا يعملون ثانياً.

ولا يخفى على أحد أن لحدوث بعض الصراعات والنزاعات الداخلية في بعض البلدان العربية، انعكاس سلبي في المحافظة على التراث الأثري؛ لأن الفوضى السياسية تؤدي إلى الفلتان والانعتاق من كثير من المعايير الثقافية وحتى الأخلاقية. وما يحصل في العراق الآن هو خير شاهد

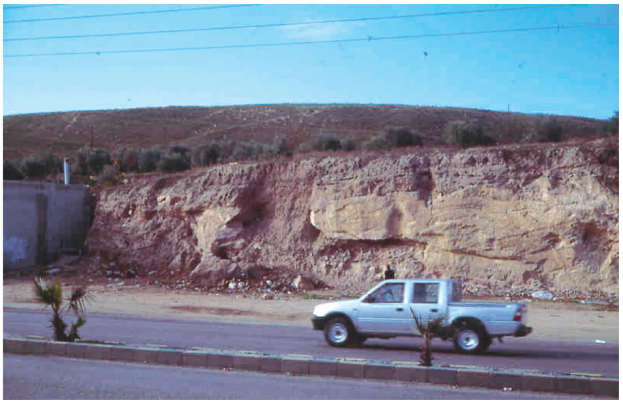

اللوحتان ١١ و ١٢: تدمير الآثار نتيجة لفتح الطرق.

على قولنا هذا، حيث دمرت المساجد التاريخية، دون إلتفاف لقيمتها الدينية والثقافية.

وإضافة لعوامل التدمير هذه هناك عامل آخر يتم باسم التطوير، ذلك أن استصلاح الأرض للزراعة وبناء البيوت والسدود وشق الطرق كلها أعمال مدمرة للمواقع الأثرية (اللوحات ١١-١٣). وبطبيعة الحال، فإن أي عمل يتطلب التعامل مع الأرض لا بد وأن يدمر ما بداخلها. ومن الواضح أننا كآثاريين لا نستطيع أن نقف بوجه عجلة البناء والتطور، لكننا نطالب أن تجري الجهات المختصة في كل بلد المسوحات والتنقيبات الأثرية في المناطق المخطط العمل بها، قبل تنفيذ مثل هذه الأعمال. وهذا الأمر يتطلب الدعم المادي من الجهات المنفذه لأي مشروع. والفائدة المرجوة من القيام بمثل هذه الحفريات الإنقاذية هو تضمين السجل الأثري معلومات حول الآثار المكتشفة. ونكون بهذه الحالة أضفنا إلى تاريخنا معلومات ربما تضيع إن لم نقم بتوثيقها.

ولتنفيذ مثل هذه المهام لا بد من إجراء ما يلي:

١. زيادة عدد الآثاريين العاملين في دوائر الآثار العربية.
٢. مشاركة الجامعات العربية في تنفيذ مثل هذه النشاطات.
٣. إنشاء وحدة في دوائر الآثار العربية تسمى «إدارة الموارد التراثية Cultural Resources Managment».
٤. التركيز على حماية المواقع والموارد الأثرية وصيانتها.

ومن هذا المقام، نود أن نرفع عقيرتنا ونقول إن مسؤولية الحفاظ على التراث الآثاري العربية لم تعد فقط مسؤولية المتخصصين في الآثار ودوائر الآثار العربية فقط، بل إننا نرى ضرورة تدخّل المؤسسات الخاصة وغير الحكومية والأفراد لحماية هذا التراث وإنقاذه. إن تضافر الجهود الرسمية وغير الرسمية هي الدرع الواقي لحماية الآثار، والسبيل لنشر المعرفة بها وتوعية الأجيال بأهميتها؛ لأنها تمثل هويتهم وحلقة من حلقات تاريخهم، فكما أنّ الأجداد صنعوها وحفظوها لنا، فينبغي علينا حفظها للأجيال القادمة.

توظيف الآثار في خدمة السياسة

ذكرنا في بداية حديثنا أن ظهور علم الآثار إلى حيز الوجود لم يكن مفاجئاً، ولكنه جاء نتيجة لخبرات ميدانية ونظرية ودوافع أخرى بعضها ديني مرتبط بالسياسة. ويذكر كتاب العهد القديم في سفر التكوين قصة الخليقة وخروج

اللوحة ١٣: المد العمراني وتدمير الآثار.

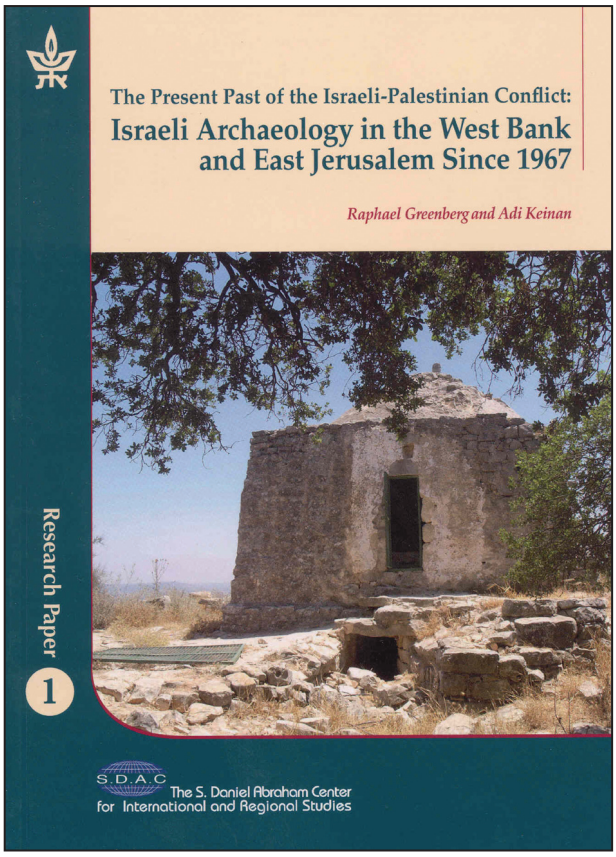

اللوحة ١٤: تقرير إسرائيلي حول النشاطات الميدانية في الضفة الغربية

سيدنا إبراهيم من مدينة أور ورحلته إلى مصر عبر بلاد الشام، وعودته إلى فلسطين واستقراره وأهله في مدينة الخليل حتى وفاته (التكوين ١٢- ١٣). كذلك جميعنا يعرف قصة خروج بني إسرائيل من مصر واستقرارهم بجنوبي بلاد الشام وتقسيم الأرض بين الأسباط الاثني عشر. مثل هذه الأخبار تشكل وبالاً في الوقت الحاضر على هذه المنطقة بالذات. فأصبحت الآثار والمواقع المكتشفة تنسب لهؤلاء الأسباط. لذا، استخدمت إسرائيل المادة الأثرية المكتشفة لتضفي على نفسها هوية ثقافية وحقًا شرعيًا في فلسطين. فأصبحنا نقرأ في بعض المنشورات الأثرية المتخصصة مصطلحات ومسميات توراتية، بل حتى أن أسماء بعض الأماكن والمواقع العربية تحولت إلى عبرية، فضاعت الهوية العربية لها. كما أجرت اسرائيل مسوحات وحفريات أثرية شملت جميع انحاء فلسطين (اللوحة ١٤) (Greenberg and Keinan 2007).

والآن كيف نواجه مثل هذه الهجمة العلمية المنظمة والمدعمة بكل الوسائل العلمية الحديثة؟ أهم ما في الأمر أن نصبح قادرين على مواجهة الحجة العلمية بمثلها، دون الاعتماد على العاطفة والإشادة بأمجاد الأجداد. ومن هنا لا بد من إنشاء مراكز بحثية عربية متخصصة مجهزة بأحدث الوسائل العلمية، وإعداد جيل علمي متمكن من نشر الأبحاث العلمية الرصينة.

الآثار العربية جزء من التراث الثقافي العالمي

من المتفق عليه أن معرفة ماضي الأمة، أية أمة، يقوى الوحدة الوطنية بين أبناء الوطن. والآثار هي من صنع الإنسان، وعاش هذا الإنسان ملايين السنين قبل أن يعرف الكتابة، لذا لن نكون قادرين على نسبة المخلفات الأثرية من عصور فترات ما قبل التاريخ لأي عرق من الأعراق، لكنها مرتبطة بالأرض المدفونة داخلها. فلم تكن هناك حدود تفصل بين الناس، بل ارتحلوا إلى المناطق التي وافقت طبيعة حياتهم. وعلى هذا الأساس، نجادل بأن هذه الآثار هي ملك للإنسان وليس لإنسان، أو أمة معينة. فحمايتها وصيانتها والمحافظة عليها هي في الأساس مسؤولية جميع البشر؛ لأنها تراث عالمي. وعلى هذا الأساس أخذت كثير من المؤسسات الدولية على عاتقها مسؤولية الحفاظ على بعض المواقع الأثرية المميزة، فأصدرت اليونيسكو لائحة بأسماء هذه المواقع. كذلك نجد أنها تدخلت عند تعرض بعض الآثار العربية والعالمية للتدمير، وأفضل مثال على هذا حين قدمت عوناً مالياً لإنقاذ معبد أبو سمبل في مصر خوفاً من غمره

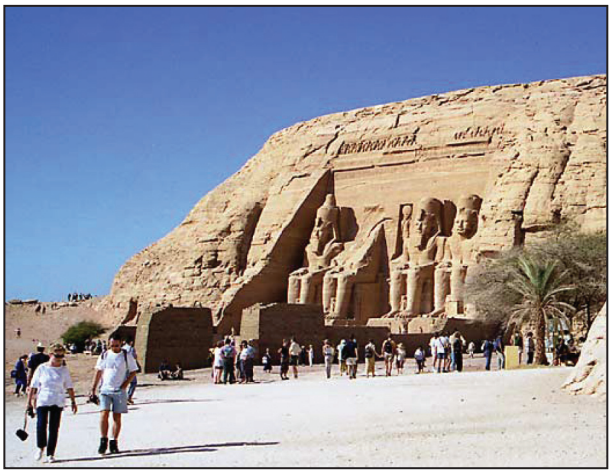

اللوحة ١٥: معبد أبو سمبل في مصر.

بمياه السد العالي (اللوحة ١٥).

وقد شدت آثارنا العربية اهتمام أبناء الأمم الأخرى، فأصبحت تشكل عاملاً اقتصادياً مهماً من خلال جذبها للسياح من مختلف أصقاع العالم. من هنا فإن السياحة الثقافية تقوم على أساس التعرف على الحضارات الغابرة. ولأجل هذا وضعت كثير من المؤسسات والشركات السياحية النشرات السياحية للتعريف بآثارنا.

إن هذا الاهتمام العالمي بالآثار العربية من حيث دراستها وتعميم المعرفة بها، يجعلها جزءًا من التراث الثقافي العالمي، ويضعها تحت المسؤولية الدولية للمحافظة عليها، لكننا لا نريد هنا أن نرفع أيدينا ونخلي المسؤولية عن أنفسنا، فهي هويتنا وتاريخنا. لذا، لا بد من توفير الكفاءات العربية والتمويل اللازم لهذا الأمر.

الخاتمة

للأسف، فإن ما يجري في الوقت الحاضر في بعض بلدان العالم العربي يعكس صورة سلبية عن المستوى الثقافي والاهتمام بالموروث الآثاري، على الرغم من بعض المحاولات الجادة. فهذا التراث في العراق وفلسطين يتعرض في كل يوم للتدمير، فماذا عملنا حتى نوقف هذا الخطر؟ وبرأينا أن عدم وعي مواطني هذين البلدين بمدى أهمية موروثهم الآثاري في تثبيت هويتهم العربية، بل والحاجة المادية للإبقاء بمتطلبات العيش هما أهم العوامل التي تدفع الناس لنبش تراثهم وتدمير مواقعهم ذات المخزون التاريخي. وهم بهذا يكونون أكثر تهديداً للتراث الأثري من الاحتلال الغاشم فوق بلدانهم. إضافةً لهذا، فإن جيل الشباب العربي هو اليوم تحت تأثير إعلامي يبعده عن موروثه الشرقي، ويقربه إلى العالم الغربي. لكن هناك عوامل أخرى تجعلنا نضرب كفاً بكف حين نسمع طالباً، أو حتى خريجاً جامعياً، لا يعرف أين تقع بعض المدن العربية المهمة؛ ناهيك عن عدم معرفته لبعض المظاهر الطبيعية البارزة. هل هذا من صنع خارجي؟ أم من صنع أيدينا؟ إذاً، هناك عوامل داخلية تنخر في جسد الموروث الثقافي العربي. وإذا كان بعض الناس لا يعرفون حاضرهم، فكيف لهم أن يعرفوا ماضيهم؟

وفي رأينا أنه لا يكفي في الوقت الحاضر أن يكون الإنسان العربي على معرفة تامة بالحاسوب وباللغات الأجنبية حتى يشق طريقه، بل عليه أن يكون عارفاً بماضيه حتى يستفيد منه في حاضره. كذلك، يجب أن لا نغفل عن ضرورة المحافظة على آثارنا والتعريف بها في الوقت نفسه، فهي ملكنا وهويتنا، وواجبنا هو المحافظة عليها وتسليمها لأحفادنا، كما ورثناها عن أجدادنا.

أ . د. زيدان عبدالكافي كفافي: كلية الآثار والأنثروبولوجيا - جامعة اليرموك - إربد - الأردن

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

إبراهيم، معاوية ١٩٩٠؛ «فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد»، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، الدراسات الخاصة ستة مجلدات، الدراسات التاريخية.

الأنصاري، عبدالرحمن وكفافي، زيدان ١٩٩٠؛ «تأصيل منهج البحث الأثري في العلم العربي»، العصور، دار المريخ للنشر، الرياض.

الناشف، خالد ٢٠٠٤؛ تدمير التراث الحضاري العراقي، فصول الكارثة، دار الحمراء للطباعة والنشر، بيروت.

أويتنج، يوليوس ١٩٩٩، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمة وتعليق سعيد بن فايز السعيد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.

بيرين جاكلين د. ت.؛ اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم، دار الكاتب العربي، بيروت، لبنان.

جوزيف، جون ٢٠٠٧، «اللغة والهوية، قومية - إثنية - دينية»، ترجمة عبدالنور خراقي، عالم المعرفة ٣٤٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.

كفافي، زيدان ٢٠٠٤؛ المدخل إلى علم الآثار، حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، الأردن.

كفافي، زيدان ٢٠٠٥؛ أصل الحضارات الأولى، دار القوافل، الرياض.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

Albright, W. F. 1971. **Archaeology of Palestine**, Gloucester, Mass, Peter Smith.

Armstrong, K. 1997. **Jerusalem One City, Three Faiths**, The New York Times Bestselling Author of A History of God. New York: Ballantine Books.

Ashmore, W. and Sharer, R. J. 1988. **Discovering Our Past. A Brief Introduction to Archaeology**. Mountain View, California: Mayfield Publishing Company.

Caubet, A. et al 1993. **Les Antiquités orientales**. Guide du visiteur. Louvre. Paris: Réunion des Musées Nationaux.

Clark, D. and Matthews, V. H. 2003. "100 Years of American Archaeology in the Middle East", **Proceeding of the American Schools of Oriental Research Centennial Celebration, Washington DC, April 2000**. Boston: American Schools of Oriental Research.

Creswell, A. D. 1932. **Early Muslim Architecture**. Oxford.

Edzard, D. O. 1995. "The Sumerian Language'. In: J. M. Sasson (ed.), **Civilizations of the Ancient Near East**. pp. 2107-2016New York.

Finley, M. I. 1963. **The Ancient Greeks**. London: Chatto and Windus.

Forest, J.-D. 2005. "The State: The Process of State Formation as Seen from Mesopotamia". In: S. Pollock and R. Bernbeck (eds.). **Archaeology of the Middle East, Critical Perspectives**, pp. 184-207, Blackwell Studies in global Archaeology. Oxford: Blackwell Publishing Ltd.

Frayne, D. R. 1990. "Old Babylonian Period (2005-1595 BC). Royal Inscriptions of Mesopotamia", **Early Periods** 4. Toronto.

Gardiner, A. 1974. **Egypt of the Pharaohs**. London: Oxford University Press.

Greenberg, R. and Keinan, A. 2007. **The Present Past of the Israeli-Palestinian Conflict: Israeli Archaeology in the West Bank and East Jerusalem**. Tel Aviv: The S. Daniel Abraham Center for International and Religion Studies, Tel Aviv University.

Jakob-Rost, L. et al 1992. **Das Vorderasiatische Museum**, Staatliche Museen zu Berlin. Mainz am Rhein: Philipp von Zabern.

Kafafi, Z. 2002. Beyond the Highways in Jordan: Threatened Sites and Rescue Excavations. In: T. Akasheh (ed.), **Proceeding of the First International Conference on Science and Technology in Archaeology and Conservation (August 12-17 2002, Jordan)**, pp. 313-321, Granada: Fundación El legado andalusi.

Kafafi, Z. and Schick, R. (eds.) 2007. **Jerusalem before Islam. British Archaeological Reports**, International Series. Oxford.

Knauf, A. 1994. **Die Umwelt des Alten Testaments. Neuer Stuttgarter Kommentar Altes Testament**. 29. Stuttgart: Verlag Katholisches Bibelwerk GmbH.

Laughlin, J. H. 2000. **Archaeology and the Bible. Approaching the Ancient World**. London: Routledge.

Moscati, S. (ed.) 1988. **Die Phönizier, Wissenschaftlische Leitung**. Hoffmann und Campe.

Nissen, H. J. 1999. **Geschichte Alt-Vorderasians. Oldenbourg Grundriss der Geschichte**. Band 25. München: R. Oldenbourg Verlag.

Pollock, S. and Bernbeck, R. (eds.) 2005. **Archaeology of the Middle East, Critical Perspectives**. Blackwell Studies in global Archaeology. Oxford: Blackwell Publishing Ltd.

Rollefson, G., Simmons, A. and Kafafi, Z. 1992. "Neolithic Cultures at <Ain Ghazal", **Journal of Field Archaeology** 19/4: 443-470.

Tylor, J. 2002. **Petra and the Lost Kingdom of the Nabataeans**. London: I.B. Tauris Publishers.

Wasilewska, E. 2000. **Creation Stories of the Middle East**. London, Jessica Kingsley Publishers.